موقع مصطفى نور الدين عطية



هل يجب أن تضع الكنيسة نهاية لفضيحة جاليلي ؟ .. بول توبييه .. ترجمة مصطفى نور الدين

مقال لم يسبق نشره

السبت 5 آذار (مارس) 2016, بقلم مصطفى نور الدين عطية



هل يجب ان تضع الكنيسة نهاية "لفضيحة جاليلي"؟
****
عنوان المقال الاصلي:
L'EGLISE DOIT-ELLE METTRE FIN AU SCANDALE GALILEE !
في مجلة LA RECHERCHE

NO.200 العدد ٢٠٠
JUIN 1988 يونيو ١٩٨٨
PARIS باريس
ص ص ٨٤٦-٨٥٣

الكاتب بيير تويية Pierre Thuillier

ترجمة مصطفى نورالدين عطية

ان محاكمة جاليلي نشرت "في جونا الثقافي سما لم يختلف بعد". هذه العبارة التي قالها ارتور كوستلر Arthur Koestler تلخص بشكل جيد عواقب القضية التي لعبت ومازالت تلعب دور الخراج الدائم. (١) وبماان الكنيسة الكاثوليكية ادانت جاليلي، "مؤسس العلم الحديث"، الد يقود ذلك ليستنتاج مؤداه ان العلم والدعتقاد متعارضان الى ما لدحد له؟ ان ما نشهده يظهر وكان سيناريو تبسيطي انتهى بفرض نفسه: فلقد قام اساقفة ظلدميون، من اجل الحفاظ على مذاهبهم، بفرض الصمت على بعض العلماء، برغم ان من هؤلدء الدساقفة من كان غير قادر حتى على فهم النظريات التي اتى بها هؤلدء العلماء.

اكثر من هذا، وحسبما تظهره منازعات معاصرة، يلوح ان كل من الطرفين الدساسيين متحد في التواطؤ ذاته، من اجل جعل هذا الموقف دائما: مع ما ينجم عنه من توترات. (٢) فاتباع العلم يرون في هذا الوضع فرصة ليحددوا هويتهم ومثلهم بوضوح: أي ان يحققوا انتصار العقل، ويدرسوا بحرية آليات الطبيعة، ويناضلوا ضد الظلدمية. والكثير من المؤمنين، من ناحيتهم، يشعرون بالدضطرار للدفاع عن الكنيسة: فيدافعون، بحذق نسبي، عن القرار الذي تبنته محكمة التفتيش في العهد الماضي ويبررونه. فيبدوا انه اصبح من باب الدعتقاد لدى بعض "مقاومي الدكليروس (الكهنوت)" كما لدى بعض الكاثوليك، ان

الصور التقليدية (الكليشيهات) الثابتة هي مراجع لا تتمتع فقط بسمتها الضرورية وانما ايضا لا يحق لاحد المساس بها. وانه يلزم بالتالي على جاليلي،المجسد الحي للعلم والضحية الابدية لجهلة الكهنة،ان يستمر يضرب كوكبنا بقدمه مكررا : " مع ذلك فالارض تدور!"

غلطة و ذنب

ومما يبعث على الرضى ان ليس الجميع لهم هذا الموقف الجامد. فمنذ وقت طويل وجد اعضاء من الكنيسة الكاثوليكية يقرون،بصوت خافت وجهرا،بان ادانة جاليلي كانت غلطة وذنب.ومن امثلة هؤلاء الاب لانجفورد Langford الذي كتب عام ١٩٦٦ كتابا صغيرا حول جاليلي والكنيسة،والكاتب على علم دقيق جدا بالقضية،(ونادرا ما يستشهد به). وفي هذا الكتاب صرح الاب لانفورد بتصريحات واضحة ودقيقة تجاوزت التصريحات المعتادة(من نوع :لقد كان حدث مؤسفا،ولكن...")، وقال بوضوح وارنا كلماته:جاليلي "كان محقا"ويمكن ان نعبر"عن شك جاد جدا حول الشرعية القانونية للمحاكمة". (٣)

وهذه الشهادة الاخيرة ذات اهمية بالغة.فالذي تعنيه،من وجهة نظر الكنيسة ذاتها،انه كانت هناك مناهج واجراءات،لا تتفق،لا نصا ولا روحا،مع قواعد الحق الكنسي،(أي الحق الذي ينظم الشئون الكنسية). اذن اذا كان من الممكن اقامة الدليل على ان بعض الممارسات كانت غير شرعية(بالمعنى الدقيق للكلمة)،فانه يصبح من الممكن ايضا اعادة النظر في المحاكمة والرجوع عن حكم ١٦٣٣،ورد الاعتبار الى جاليلي باسلوب رسمي تماما.

ومنذ وقت قريب،تساءل مؤرخ العلوم جيروجيو دي سانتليانا Giorgio de Santillana لماذا تخشى الكنيسة وضع حد لكل الوان سؤ التفاهم التي تنتج من هذا "العسف"؟ (٤) هذا يعني انه اذا حسنت النية يمكننا ان نعط لهذه اللوحة من الاحداث مصداقية اكثر وتكون اقل سلبية.لان كل من البابا آوربان الثامن Urbain VIII والكردينال بيلرمان Bellarmin "كانا قد واجها ثورة ثقافية لم يكن بمقدورهما

مجرد تصورها".الا ان هذا المؤرخ يضيف "انهما كانا يسلكان دائما كسيدين كبيرين".ومن هنا تاتي هذه النتيجة المتناقضة وهي:ان المدافعين الجدد عن العقيدة النصرانية،في محاولتهم تبرير السلوك المريب لبعض رجال الكنيسة،نجحوا فقط في"خلط الدوراق" ونشر تاريخ لا يخرج منه احد كبيرا.

ففي ظل ظروف القرن السابع عشر سببت محاكمة جاليلي مشكلة خطيرة وممكزقة ايضا.فلقد كانت هناك ازمة تلت ازمات اخرى وكان من الممكن حل هذه الازمة بطريقة ماهرة ولائقة.فلماذا يظل هناك اصرار على تغطية بعض الشطط تحت اسم "داعي المصلحة العليا Raison d'Etat "؟ حسب تعبير جيروجيو دى سانتلياتا.ان هناك كثير من التبريرات تنثر الرماد في العيون وتموه على المشاكل الحقيقية.ولقد اعطى بيير كوستابل Pierre Costabel في مقالة حديثة له ابعادا معاصرة لهذة المناظرة. (٥)

فلقد عبر مؤرخ العلوم الفرنسي بشكل مباشر عن امنياته بقوله:ان الكنيسة الكاثوليكية يجب ان تنتهج "مسلكا صريحا وايجابيا".واضاف "منذ اربع سنوات اعلنت الكنيسة عن رغبتها في تكريم جاليلي، ولكن الكنيسة لاتعتبر بهذا الفعل وحده خالصة الذمة حيال هذا العالم المؤمن الخالص الايمان." وهذا الموقف يستمد اهميته الخاصة من امرين.فمن ناحية بيير كوستابل نفسة"قس في المحفل الخطابيprêtre de l'Oratoire " ولقد حرص ان يذكر ذلك اسفل توقيعه.ومن ناحية اخرى انه لم يكتف بالتعبير عن مجرد اماني فضفاضة مبهمة.وانما ذهب بتحليله حتى النهاية،وطرق عمق المسألة اللاهوتيية"أي مسألة سر القربان المقدس l'Eucharistie "التي يرى انها ذات علاقة مباشرة في قضية جاليلي.فهو يقول ان الذي يجب معاودة النظر فيه ليس فقط المحاكمة الشهيرة ،وانما ايضا يجب تصحيح الصيغ المذهبية التي تسبب منذ عدة قرون "عقبات دائمة".وهذا الموقف يتسم الى اقصى ما هو ممكن بالجرأة والصواب.

ولكن ما الذي يدعو الاب كوستابل الى طرق مسألة سر القربان المقدس؟ نحن نعلم ان العالم الفلورنسي(جاليلي)تمت ادانته رسميا

عام ١٦٣٣،لانه دافع عن علم الفلك الكوبرنيكي وقام بتدريسه(وحسب نظرية كوبرنيك تدور الارض حول الشمس).فما هي اذن العلاقة بين رفض اعتبار الشمس مركز الكون والمذهب الذي يؤكد على الوجود الحقيقي ليسوع المسيح في خبز الذبيحة l'hostie والقربان ؟ لفهم منهج الاب كوستابل،يجب الرجوع الى كتابات بيترو ريدوندي Pietro Redondi الحديثة.فهذا المؤرخ الايطالي في كتابه"جاليلي الهرطيق Galilee hérétique " وضع بالفعل فرضية جديدة لتفسير محاكمة جاليلي(انظر الكادر الموجود بمجلة La Recherche عدد يناير ١٩٨٨،ص ٩٠،حول جاليلي ومذهب الجوهر الفرد "المذهب الذري" واليسوعيين) . (٦)

يقول بيرتو ريدوندي من المحتمل ان جاليلي اثار خشية العديد من علماء اللاهوت عندما صاغ بعض اطروحات تنتمي الى مذهب الجوهر الفرد (المذهب الذري)التي لا تتفق مع مذهب القربان المقدس.ولنذكر بان المذهب الذري انتشر على يد فلاسفة اليونان القدامى "وخاصة ديمقريطس Démocrite "وهو يذهب الى القول بان الطبيعة مؤلفة من جسيمات متناهية الصغر لا تقبل الانقسام(وهذا هو المعنى ذاته لكلمة جوهر"ذرة")وان هذه الجسيمات ذات حركة.ولقد نشر جاليلي سنة ١٦٢٣ كتاب "المُجرب L'essayeur "،وهو كتاب جدالي الى حد ما،يقوم فيه،من بين اشياء اخرى ،بالاخذ بفرضية ذرية والتوصل الى بعض الاستنتاجات الفلسفية.وهذا ما يجعله يبدو كخلف للماديين القدامى. ولكن هناك ما هو اكثر جسامة ايضا:إذ ان اطروحاته الذرية ،من المحتمل،ان تشكك في تعاليم الكنيسة حول سر القربان المقدس(لاسباب سوف نعود اليها بعد ذلك).

جاليلي والقربان المقدس

في القرن السابع عشر كان القربان المقدس Saint-Sacrement "وهي تسمية اخرى لسر القربان المقدس l'Eucharistie "يحتل مكانة تحظى بقداسة كبيرة.ومن هنا كان المساس،ولو بطريقة غير مباشرة،بهذه النقطة الاساسية في الطقوس الكاثوليكية،يعني التعرض للاخطار.

ولقد قام بيترو ريدوندي بالقاء الضوء ،بالتحديد، على اهمية هذه المجازفة.وليبدأ مسعاه برهن على ان المسالة اللدهوتيتة التي اثارت الغضب في ذرية جاليلي ،كان خبراء عصره قد ادركوها بالفعل.وهذه واقعة تاريخية "جديدة"،ومن ناحية اخرى هامة.فاذا كان بعض اللدهوتيين قد حكموا بالفعل بان العديد من اطروحات "المجرب" شكلت تهديدا خطيرا لمذهب سر القربان المقدس،فالبد يحق اذن البحث في هذا الصوب عن "السبب"الحقيقي لمحاكمة ١٦٣٣ ؟ فالبرهان الرئيسي تم اقامته بالدستناد على هذه الوثيقة"الجديدة"،التي يطلق عليها اسم الوثيقة G3 بسبب التبويب الذي تأخذه.ولقد استطاع بيترو ريدوندي، الذي كان تلميذا لبير كوستابل،الدحاطة بوجودها بمساعدة من استاذه. والوثيقة عبارة عن مخطوط محفوظ في ارشيف الدبرشية المقدسة المختص بمذهب العقيدة Archives de la Sacrée Congrégation pour la doctrine de la foi

ولقد قدم المخطوط الى محكمة التفتيش كوشاية،قبل محاكمة جاليلي بوقت قليل.ولقد وضح المؤلف(المجهول الهوية)بدقة لماذا يجب ان يعتبر كتاب (المساح)محل اشتباه.فجاليلي في هذاالكتاب يرجع الى "المذهب الذري عند كل من انكساجورس Anaxagoreوديمقريطس Démocrite " لشرح تكون المادة ولتعريف حالة احاسيسنا.فجاليلي يرى ان الروائح والمذاق والدلوان،الى اخره"ليست كلمات محضة(خالصة)؛ وانما هي موجودة فقط في الجسم الحاس للحيوان الذي يشعر بها". (٧) ويشير مؤلف الوثيقة G3 الى العواقب التي تنتج عن هذه النظرة فيقول "اذا اعتبرنا كحقيقة هذه الفلسفة(...)فانه يبدو لي انها فلسفة تسبب صعوبات هائلة حيال وجود عوارض accidentsالخبز والنبيذ،في القربان المقدس،اللذان ينفصلدن عن ماهيتهما substanceالخاصة. و تشير الى "ان كلمتي "عوارض"و"ماهية" هنا يحيلدن الى مفهومين في فلسفة ارسطو ،واعاد الفلدسفة المدرسيين استخدمهما. وبغض انظر عن هذه المسائل التكنيكية المتعلقة بالفلسفة،فالنتيجة كانت واضحة وهي ان:فيزياء جاليلي ليست موافقة لتعليمات"المجامع المقدسةSacrés

Concilesوخاصة مجمع الثلاثين Concile de Ttente " فالمذهب القائل بالوجود الحقيقي للمسيح في القربان(خبز الذبيحة) كان اذن في خطر.

وكما اظهر بيترو ربدوندي،يلوح الى حد كبير ان"الواشي"كان هوالاب جراسي Grassi ،وهو يسوعي نقده جاليلي بشدة في كتابه المجرب. على كل حال،ان النقطة الاساسية الثابته هي ان:جاليلي قد"كشف" بواسطة حماة المذهب؛بسبب مذهبه الذري.ومن هنا نفهم لماذا قدّر الاب كوستابل انه من الملائم ان يبذل مجهودا كبيرا من اجل تحقيق هذا التصحيح أوالضبط بفعالية.

ذلك لان الكنيسة،من اجل الحفاظ على نظرية سر القربان المقدس، قامت بوضع صيغة"تفسير متكلفة وتلق شكامن حيث تفسيرها الفيزياتي": وهذه الصيغة تقول ان مظهري الخبز والنبيذ يتمتعان بالبقاء،ولكن "ماهيتهما"تتغير.وهذا التفسير يلوح مستبعد الحدوث من منظور فيزيائي.اذ بالفعل كيف يمكن الاعتقاد بان جزئيات الخبز والنبيذ تتحول فجأة الى جزئيات جديدة وتصبح هي ذاتها بالفعل جزئيات جسد ودم يسوع المسيح ؟ ان الذي ينتج عن ذلك هو "صدمة عنيفة بين العلم والاعتقاد"، أو نوع من الفضيحة الثقافية التي تبعد الانتباه عن المسائل الحقيقية المتعلقة بالايمان .وهذا ما قصده بيير كوستابل بوضوح تام حينما قال :انه من غير الضروري على الاطلاق لكي يكون المرأ كاثوليكيا حقيقيا ان يعتقد بان هناك"استحالة للقربان transsubstantiation " بشكل مادي.فالمزج بين الروحي والفيزيائي يؤدي الى ادخال تعقيدات وغموض لا فائدة منهما.وللتوصل الى مخرج من هذا،فانه يليق بالكنيسة ان تعيد النظر ببعض الصيغ.(ولكن يجب الاشارة الى انه:ليس من المعهود ان تقوم الكنيسة بتغير صيغة من المذهب خاصة فيما يخص واحدة من اهمها وهي تلك المتعلقة بسر القربان المقدس...)

على كل حال،هذه الاسئلة ذات اهمية بالغة أي :هل فكرت بعض السلطات اللاهوتية حقيقة في اتهام جاليلي بسبب قناعاته بالمذهب الذري؟ وهل كانت محاكمة جاليلي الكوبرنيكي ذات هدف اساسي يتمثل في القضاء على جاليلي الذري ؟

كما اكد بيترو ريدوندي،يجب ان يؤخذ في الاعتبار حقيقة ان جاليلي قد خلق له اعداء شخصيين من بين رجال الكنيسة.وان هذه العداوات ذات الطابع الشخصي مكنت من تفجير أو من تسهيل بعض الهجوم "اللاهوتي".ومن هنا فلقد اثار جاليلي ضده بعض اعضاء من رهبانية اليسوعيين la Compagnie de Jésus ،ويستشهد ارتور كوستلر باقوال للاب جرينبرجر Grienberger ،وهو يسوعي من القرن السابع عشر كان يعلم الرياضيات في الكوليجو رومانو Collegio Romano اذ يقول:"لو ان جاليلي عرف كيف يحافظ على الود مع اباء هذا الكوليج، لعاش مبجلا في العالم،وما كان تعرض لزوال حظوته،ولكان بامكانه ان يكتب حسبما يرى في كل الموضوعات،بما في ذلك دوران الارض." (٨) وجدير بالاشارة ان العديد من كتاب القرن السابع عشر"مثل نوديه Naudé و ديكارتDescartes " رأوا ان اليسوعيين هم الذين وشوا بجاليلي.وعندما كان جاليلي يستعد لطباعة كتاب"حوار حول نظامي العالم الكبيرين Dialogue sur les deux grands systèmes du monde "اعلمه صديقه الاب كاستيلي Castelli انه معرض لهجوم بسبب "بواعث قوية جدا". يلوح ان هذه البواعث كانت شديدة الخصوصية،لان الاب كاستيلي صرح"بانه لايرغب ان تكتب على الورق". (٩)

فماذا كانت طبيعة هذه البواعث؟ خمن بعض المؤرخين،بفضل بعض التفاصيل،انه كان هناك لغزا يحتاج الى القاء الضوء عليه.ولكن من اجل التقدم في تفسير جديد للمحاكمة لا يكفي معرفة ان جاليلي كان قد دخل في صراع مع الاب جراسي والاب شاينر Scheiner ،فالكنيسة لم ترتجل اطلاقا،فيما يتعلق بمثل هذه الامور.وحتى بافتراض وجود"مؤامرة"،فانه يلزم وجود بواعث جادة.وهنا بالضبط تمدنا النظرية الذرية بالورقة الناقصة في اللغز.وباختصار،من المرجح ان البابا اوربان الثامن خفف عمدا من الاتهامات التي كان اللاهوتيون يريدون توجيهها ضد جاليلي.ذلك ان محاكمة ممركزة حول المذهب الذري وسر القربان المقدس كانت ستحمل خطورة اكبر على جاليلي.ومن هنا فان

قصر الاتهام على كونه من اتباع كوبرنيك ادى الى تحاشي اسوأ ما كان يمكن ان يحدث.ولقد تلق جاليلي لفت نظر جاد،ولكن المسالة الحساسة المتعلقة بسر القربان المقدس لم يتم طرقها علانية.

اذن فالمحاكمة التي تمت يجب اعتبارها نتيجة لنوع من التسوية أو التراضي.فلقد حبذ انتصار الاعتدال في مواجهة بعض اللاهوتيين الاكثر حدة (خاصة بعض اليسوعيين).ولذلك فان السلطات الكاثوليكية العليا عندما اكتفت بقصر التهمة الموجهة الى جاليلي على دفاعه عن النظرية الفلكية التي تقول بان الشمس في مركز الكون وتعليمه لها انما انقذته بذلك في الواقع من ورطة.

ولقد جعل بيرتو ريدوندي من هذه الرواية الاحتمال الاكثر قبولا، بالاستناد على التضاربات الموجودة بين القرائن المختلفة.ولعل احد اهم الفوائد التى نتجت من هذه الرواية تمثل في اظهار السبب وراء اعطاء الكنيسة كل هذه الاهمية لمسالة وضعها كوبرنيك.

و على عكس ما جرى العرف غالبا على اقراره،لم يكن هناك بالفعل من سبب لاهوتي حقيقي يمكن ان يكون باعثا على محاكمة بهذاالقدر من الاهمية حول هذه الاطروحة.فالاعتقاد لم يكن معرضا،في الواقع، للتهديد في اسسه من علم الكونيات الجديد.ولو اردنا ان ندرك ما حدث،فانه من الانسب ان نركز على الآتي:لم يؤكد أي مذهب،بالمعنى الدقيق، على ان الارض كانت مركز الكون.إذن لماذا قررت الكنيسة مهاجمة جاليلي فى هذا الميدان ؟الرد التقليدي هو انها ارادت ان تنقذ ،بأي ثمن كان، مذهب لا معقول ولكنه ضروري لبقائها.ولقد ذهب بعض الكتاب الى القول أو الى الايحاء بان البابا قد ادان كوبرنيك وجاليلي،وعبر عن هذه الادانة باسلوب "معصوم من الخطأ infaillible ".وبطبيعة الحال تقديم المسالة على هذا النحو يظهر بوضوح ظلامية الكنيسة.حيث ان ثقتها فيما تزعمه "عصمة من الخطأ"التي يتمتع بها البابا،جعلتها ضارية في التمسك بموقفها،رغم كل العقبات،ضد علم الكونيات الاخرق.ومن هنا تبدو محاكمة جاليلي كنتيجة حتمية لهذا الواقع.

ولكن هنا نجد خطأ مميز متعلق بمفهومي "المذهب" و"العصمة من الخطأ". إذ طبقا لما يقول به اللاهوت الكاثوليكي، يتمتع البابا والكنيسة بالفعل، بهذا الامتياز، ولكن في ظل شروط محددة تماما. فعلى سبيل المثال، لا يكفي ان يعطي البابا رأيه حول موضوع ما ليمكن الكلام حينئذ عن رأي "معصوم من الخطأ". إذ يجب أن يعبر عن رأيه بطريقة رسمية وعلنية ex cathedra في موضوعات عقائدية دقيقة تماما. (١٠) ومن وجهة نظر الكنيسة ذاتها، يظل مفهوم "العصمة من الخطأ" غير واضح كلية! ففيما يتعلق ببعض جوانبه مازالت وجهات نظر اللاهوتيين متضاربة. غير انه فيما يتعلق بمسألة النظرية الكوبرنيكية، فانه من الثابت، ان الاحكام التي صاغتها الكنيسة بشأنها لم تكن داخلة ضمن الاحكام "المعصومة من الخطأ". فالمشكلة كانت تتعلق بمسألة انضباطية وليس بمسألة عقائدية. فلقد قدرت الكنيسة ان علم الفلك الكوبرنيكي خاطىء وخطير، واصدرت امرا بالا يدافع عنه احد، وان الكاثوليكي الحق يجب ان يصدع للامر... ولكن الكنيسة لم تعلن باسلوب مذهبي وعقائدي انه علم هرطيقي (ملحد) حقيقة.

ولقد اثبت ارتور كوستلر بانه عادة ما عارضت هذه النقطة عن النظر، وكتب يقول: "ان عدم حركة الارض لم تشكل اطلاقا احد اركان الايمان، ولم يعتبر كالحاد القول بعدم حركة الشمس." (١١) ويؤكد العديد من الشهود ان المهتمين بهذه المسألة، في القرن السابع عشر، كانوا يرون الامر على هذا النحو. فالكردينال باربريني Barberini، الذي كان صديقا لجاليلي، واصبح في ١٦٢٣ البابا تحت اسم اوربان الثامن، صرح قائلا بشأن كوبرنيك ان "الكنيسة لم تتهم نظريته ولن تتهمها كنظرية الحادية، ولكن فقط كنظرية لا سند لها". (١٢)

اما الاب اليسوعي ريشولي Riccioli فلقد كتب في عام ١٦٥١ بانه يجب الخضوع لامر المنع، ولكن لم يحدث اطلاقا ان اتخذ اي بابا او مجلس بيوي "حكما مذهبيا" بشأن موضوع علم الكونيات

الكوبرنيكي.وفي عام ١٦٨٥ أكد اب يسوعي آخر وهو الاب كوشانسكي Kochansky بان كل كاثوليكي حر في"البحث عن اثبات رياضي وفيزياتي لا يجادل عن حركة الارض". (١٣)

وهل من الضروري ان نذكر بان اليسوعيين،بوجه خاص، كانوا يدرسون دائما علم الفلك الكوبرنيكي؟ وكانوا يحتاطون فقط ،ويذكرون بانه علم فلك له سمة الفرضية.فلو كانت الكوبرنيكية اعتبرت حرفيا نظرية "ملحدة" لما امكن السماح بمثل هذا السلوك.

ان الهدف من هذه الملاحظات ليس تقديم "تبرئة"للكنيسة.فانه من لحظة الاعتراف بان البشر احرار في ارائهم ،لا يمكن ان ينظر الى التدخلات العنيفة من قبل اللاهوتيين،في مجال العلم،الا على انه امر غير عادل ومصدم،وايا كانت الرواية التي تعطى لهذه المسالة، فان فيها ما يبعث على الذعر.

ولكن لفهم المخالفات التي تم ارتكابها بشان المحاكمة،ينبغي رؤية المكانة اللاهوتية لنظرية كوبرنيك.وكما يؤكد بيير كوستابل لم يكن هناك"لا فتوى بوية ولا قرار للمجلس البابوي" يمكن ان يستخدم كقاعدة حقوقية للاتهام بالالحاد.فعندما دافع جاليلي عن النظرية التي ترى ان الشمس هي مركز الكونl'héliocentrisme ،لم يهاجم أي مذهب،وبالتالي ليس من الممكن ان يحكم عليه بالالحاد.ونجد هنا اول خطا حقوقي.اذ في الواقع نجد ان الحكم الاخير يصرح بان النظرية القائلة بان الشمس هي مركز الكون "ملحدة قطعا"!وعلى اساس هذه القاعدة المتنازع حولها تماما، تمت بلورة حكم الاتهام.واذا فحصنا التفاصيل،فان الحكم يلوح اكثر اعتدالا مما قصد به عادة.ولكن في النهاية لقد نظر الى جاليلي"على انه مشتبه في الحاده بشدة".ومن وجهة نظر الكنيسة ذاتها يلوح هذا كظلم واضح.

جاليلي واللاهوت

رسالة الى الدوقة الكبيرة

ان اطروحة بيترو ريدوندي فضل تفسير سبب المبالغة بشان مشكلة نظرية الشمس كمركز للكون.فهو يرى انها كانت وسيلة ارضاء جزئية

لمطالب"المتطرفين"،أي اولئك الذين كانوا يرغبون في مهاجمة جاليلي في مسألة سر القربان المقدس.وكانت هناك، والحق يقال،اعتبارات من طبيعة حقوقية،تلعب في صالح الحل الذي تم تبنيه. أما فيما يتعلق بحالة النظرية الذرية،فلقد امتنع جاليلي،في الواقع،عن الادلاء بأي تصريحات لاهوتية كانت ستأتي في غير وقتها تماما.لكنه لو كانت "نظرية الجوهر الفرد" التي تطرق اليها كتابالمحكيرذات خطورة على المذهب الفقهي ،فان ذلك كان بشكل غير مباشر، ولم يكن هناك إذن ذريعة للتدخل السريع.اما بشأن مذهب كوبرنيك فان الامر سار بشأنه بشكل مختلف.

لكن جاليلي في خطابه،عام ١٦١٥،الى الدوقة الكبيرة كريستين Christine تطرق مفسرا لها كيف يجب فهم العلاقة بين العلم والاعتقاد.ولقد كتب نص هذا الخطاب كمسيحي مؤمن.ولكنه في الواقع كان يريد ان يعلم اللاهوتيين الاسلوب الامثل لقراءة الكتاب المقدس... ففي الخطاب يوضح ،بشكل خاص،كيف يجب عليهم ان يوفقوا بين اراء العلماء الفلكية واخبار الكتاب المقدس (يشوع اوقف سير الشمس ،الخ Josué arrêtant la marche du soleil,etc ".ولذلك وجدت السلطات الدينية فرصة في هذا التحليل لكي تتدخل.أليس جاليلي هو الذي فتح باب النقاش ! اما كوبرنيك فحتى هذا الوقت لم يكن موضوعا لأي اجراء تحريم.ولكن سرعان ما سوف يوضع كتابه الاساسي الذي صدر عام ١٥٤٣ عن"دوران المدارات السماوية révolutions des orbes célests " في قائمة الكتب الممنوعة(١٦١٦). ونعيد التأكيد من جديد، ان ذلك لم يكن اقرارا مذهبيا بالالحاد.ولكن مع ذلك كانت ضربة ايقاف.وكانت رغبة جاليلي ان "يوقف معارضة اللاهوتيين الذين بدأوا يوجهونها ضد كوبرنيك".وللاسف،فان خطاب جاليلي الى الدوقة الكبيرة"حمل عكس ما كان جاليلي يطمح اليه تماما،إذ كان السبب الاساسي في تحريم كوبرنيك". (١٤)

وفيما يتعلق بجاليلي نفسه فقد بدأ وضعه تحت مراقبة الرقباء.ولم يؤد ظهور كتابه"المجرب"بعد ذلك بعدة سنوات الا الى زيادة الشك حوله.ومرة اخرى نعود الى بييترو ريدوندي الذي يقول:ان بعض

اللاهوتيين، من الصف الاول،ومن بينهم بعض الشخصيات من اليسوعيين، قد اقسموا ان يقيموا العقبات امام جاليلي.ولذلك ففي الواجهة كانت المحاكمة لكوبرنيك.ولكن البواعث العميقة كانت من مناهضي اتباع مذهب الجوهر الفرد واتباع سر القربان المقدس:"تذكر الامر جيدا،لا تتكلم عنه اطلاقا!"وهذا يذكرنا بان ايطالو كالفاينوItalo Calvino عندما قدم عرضا لكتاب ريدوندي قد اختار لعرضه عنوانا له دلالته: وهو "كيف اوقعوا بجاليلي". (١٥)

ان كل عبارة كتبت حول مسالة جاليلي تبعث على اثارة النقاش،ومن هنا ليس من المدهش ان تظل الرواية الخاصة"بالمذهب الذري" تواجه انكارا.وبرغم هذا،فبكل الحسابات لقد كان جاليلي ضحية لمحاكمة ظالمة.ليس فقط لانه لم توجه اليه ادانة بتهمة الالحاد ولكن لانه خضع لعملية "تلاعب" به باسلوب تعسفي قانونيا واخلاقيا غير مقبول (بالرجوع الي المبادىء الدولية في المسيحية).وانا المح هنا الى الحادثة المعروفة جيدا المتعلقة"بامر ١٦١٦".اذ في يوم ٢٦ فبراير من السنة المذكورة،تم استدعاء جاليلي للمثول امام اللجنة العامة لمحكمة التفتيش وامام الكردينال بيلرمان من اجل توجيه "اللوم"له. وكل تفسير للمحاكمة توقف علي ما حدث في هذا اليوم المذكور.وملخص ما حدث فيه هو الاتي:

كان موضوع الاستدعاء اساسا واضحا:وهو "لفت نظر" جاليلي الى الخطا الذي يرتكبه باعتناقه لنظرية كوبرنيك ونصحه "بالا يدعم أو يدافع"عن هذا المذهب. اذن في حالة ما اذا رفض هذا النصح فانه سوف يتلقى"تحذيرا"يشكل اول اجراء عقابي.و في الواقع كان من غير المفيد اللجوء الى هذا التحذير القاسي.لان جاليلي تقبل لفت النظر الذي وجهه له الكردينال بيلرمان.وهذا من الامور المعروفة تماما لان الكردينال بيلرمان نفسه قد سلم جاليلي،بناء على طلبه،شهادة تلخص ما تم في هذا اللقاء.وفي هذه الشهادة لا يوجد اطلاقا أي تحذير يمنع جاليلي من الدفاع عن نظرية كوبرنيك أو يحرم عليه تدريسها اطلاقا".الا ان ما نجده هو أن هذا التحذير المزعوم لعام ١٦١٦ هو

الذي شكل الباعث الاساسي للاتهام في محاكمة عام ١٦٣٣ . فالحكم يذكر ان: جاليلي باستمراره "تدريس" نظرية كوبرنيك قد ارتكب خطيئة كبيرة .

من وجهة نظر قانونية، كان هناك تجاوزت صدمت العديد من المؤرخين. لانه حتى اليوم، لا نعرف أي وثيقة اصلية محررة امام موثق تثبت الانذار ومحتواه . فالوثيقة الوحيدة الموجودة ليست موقعة وليس لها أي قيمة قانونية. لدرجة ان بعض المؤرخين يعتقدون انها وثيقة مزورة. ولقد طعن بعض الخبراء في هذه الفكرة، الا ان الصعوبة القانونية تظل ماثلة. فالذي اخذ "كبرهان" للاتهام، كان بشكل مبدئي، هو شهادة بيلرمان، والتي قدمها جاليلي نفسه الى المحكمة (والتي لا يذكر فيها أي تحذير). غير ان هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان المسألة تم ادارتها بطريقة غير شرعية. وليس هناك ما يسمح بالبرهنة على ان جاليلي قد ارتكب حقا الخطأ الذي تم توجيهه اليه. ولكن ما هو اسوأ هو ان جاليلي، كما سبق وذكرت، كان تم "التلاعب" به .

لقد اعترف! اذن هو مذنب ..

اثناء التحقيق مع جاليلي، تركه المحققون في جو من الشك فيما يتعلق بشأن الادلة (أو الادلة المزعومة) التي تحوزها المحكمة. لقد كان جاليلي في السبعين من عمره، وكانت حكاية التحذير المزعوم ترجع لسبعة عشر سنة خلت ؛ وتحت وطأة توجيه الاسئلة واعادة طرحها انتهى المتهم بالاقرار بانه خالف الامر ؛ الذي من الاكيد انه لم يوجه اليه اطلاقا ! ولعل في هذا يكمن الخزي الكبير في هذه المحاكمة: فجاليلي، بالخديعة، ارغم على اعتراف واتهم بالارتداد وهو ما لم يكن هناك أي مبرر لهما. وهذا يجعلنا نفهم لماذا خرج من هذه المحنة منكسرا. ونفهم ايضا لماذا يتردد الفاتيكان Vatican في جعل ارشيفه مفتوحا للجميع .اذ لو كان به وثائق اصلية تبرر سلوك هؤلاء القضاة، لكنا احطنا علما بها منذ وقت طويل. فعلى الاقل هذه هي وجهة النظر الاكثر عقلانية التي يمكننا القول بها الآن.

فالاب كوستابل، القس ومؤرخ العلوم، يركز على هذه النظرة في رؤية هذه المسألة. إذ ان جاليلي ليس فقط لم يتمسك بآراء "ملحدة"، وانما ايضا من غير الممكن اقامة الدليل على انه لم يخضع لامر علني ورسمي تم توجيهه اليه. ولذلك فان الدعوى التي تمت لم يتقدم ما يبررها، لا على الصعيد العقائدي ولا على الصعيد التأديبي.

وبرغم ذكر هذا، فانه من الضروري ادراك ان جاليلي لم يسلك دائما بطريقة خالية من المآخذ. فاثناء المحاكمة، حدث ان انكر عدة مرات حقائق واضحة- ومن ذلك قوله بان كتابه الهام "الحوار.." لم يسع اطلاقا الى الدفاع عن نظرية كوبرنيك! وتكفي قراءة نص الكتاب لادراك مدى ضعف هذا الاسلوب في الدفاع. ولكن جاليلي كان يشعر بالخوف، ولا يعرف كيف عليه ان يحمي نفسه، وعلى كل حال لم تكن نقائص المتهم لتسهم في اضفاء شرعية على الاجراءات المعيبة التي لجأ اليها القضاة. واذا كنت اركز على المظاهر القانونية فذلك من اجل وضع المسائل على صعيد القضية، التي هي قضيتهم. اذ بالفعل في كثير من الاحيان يتدهور الحوار حول هذه المسألة ويتحول الى صدامات متعادية لصالح طرف أو آخر. وذلك يعني انه يتم نسيان معالجة الموضوع.. فجاليلي، ارتكب ، بالفعل، بعض الاخطاء من كل نوع (فعلى سبيل المثال رفض الاعتراف بان القمر له دور في ظاهرة مد البحر وجزره). ومن ناحية اخرى لم يكن دائما يتحلى بدماثة السلوك، وكان في بعض الاحيان يحتقر خصومه، ويصفهم "بالبلهاء" أو "رجال تفهاء". ولكن أيا كانت قائمة عيوبه، فانها لا تمنح الشرعية لحكم ظالم.

وبشكل مناظر يجدر التأكيد على ان اعادة نظر احتمالية للمحاكمة لا ينبغي ان تفهم على انها شجب لمثل هذه الرهبانية أو هذا النظام الديني. فالعديد من اليسوعيين والدومنيكان كانوا بالتأكيد "متورطين" كما نقول بلغتنا المعاصرة. وعلى قدر ما نستطيع معرفته، فانهم تناولوا النصوص على هواهم وصاغوا منها فكرة شاذة للعدالة المقدسة. الا ان العديد من رجال الكنيسة ذوي الاهمية حاولوا ايجاد بعض التسويات، أو استطاعوا، في لحظة حرجة أو اخرى، تجنيب المتهم

لمعاملة مهينة.وجدير بالذكر ايضا ان الكردينال بيلرمان كان ينتمي الى "رهبانية اليسوعيين".

انه يجب الاقرار بان تاريخ هذه المحاكمة تاريخ شديد التعقيد،وفي بعض الاحيان متناقض.ولذلك فانه يلزم، لتقييم كل التفاصيل المعقدة،ان نتحلى بالصبر ونتعلم كيف "نفك شفرة" الرسائل التي لم نعد نعتادها.الا ان هذه الملاحظات تعتبر متعلقة بالجانب التاريخي ،بينما المراجعة التي عبر بيير كوستابل تتعلق بجوهر المسألة.

الیس هذا زمن تفريغ الخراج؟

اذا كان لاعادة النظر في المحاكمة حظ في الحدوث يوما،فان هذا لن يكون فعالا الا اذا تم دون اي تكتم ودون ان يترك ابهاما في اي جانب من جوانبها.والنتائج التي توصل اليها بيرتو ريدوندي،حتى لو كانت قابلة للنقاش،تدفع للاعتقاد،بانه مع توفر وثائق جديدة،من الممكن ان ننجح في الوصول الى رؤية واضحة.بقول آخر،ان الفاتيكان بامكانه فتح تحقيق تمهيدي دقيق(الا يمكن ان نتصور،ايضا،ان الفاتيكان يعرف الآن اين يجد غايته..؟).فعلى اساس"وقائع جديدة"، يمكن ان تقوم المحاكمة الثانية بالغاء الحكم الاول.وبهذه الطريقة يتم تفريغ الخراج.

بل كما رأينا،يذهب بيير كوستابل الى ابعد من ذلك.فهو يتمنى ان يعاد النظر، عند الاقتضاء،في صيغة مذهب سر القربان المقدس.إذ انه عندما تم صياغة هذا المذهب بواسطة الكنيسة الكاثوليكية،فانما كان لتباعد بينها وبين البروتستانتية وان تحافظ على مكتسباتها اللاهوتية التي تقدر انها ثمينة.ولكن في وقت مجمع الثلاثين (في منتصف القرن السادس عشر)،لم يحدث اتفاق بالاجماع حول هذا المذهب.اليس من الثمين ايضا احداث تلاشي لهذا الابهام والصراعات التي،هي بدون شك،ضارة بكل من الحياة العلمية والحياة الروحية؟ اننا نطرح هذا السؤال في اصطلاحات جلية بقدر الامكان.فالحديث الحلو لن يشكل اجابة مرضية.

"ان الافتراض القائل بان الشمس هي مركز الكون ولاتتحرك في موقعها افتراض لا معقول وخاطيء فلسفيا،وهو رسميا افترض ملحد لكونه مناقض بوضوح للكتاب المقدس" على اساس هذا التأكيد اللاهوتي تمت في عام ١٦٣٣ ادانة جاليلي من قبل الكنيسة الكاثوليكية.وهذا الحكم يمكن ان يعتبر فضيحة لاسباب عدة.فمن الاكيد ان جاليلي وقف مناصرا لعلم الكونيات الكوبرنيكي.ولكن هل من الصحيح ان النظرية القائلة بان الشمس هي مركز الكون مثلت "الحادا"فعليا؟ بالتأكيد لا.ولكما اوضح الاب بيير كوستابل،القس في المحفل الخطابي ،بان الاتهام بالالحاد لم يكن له "أي اساس شرعي"؛ وانه لم تبرره أي فتوى بابوية،أو أي قرار من المجلس البابوي. بل ان منع تداول كتب كوبرنيك ذاته(١٦١٦) لايتضمن اتهاما مذهبيا للنظرية القائلة بان الشمس هي مركز الكون.واذا اقتصرنا على النظرة القانونية وحدها تعتبر محاكمة جاليلي غير شرعية.غير ان هناك بواعث اخرى يمكن طرقها من اجل اعادة النظر في المحاكمة.

ولقد اقتبس مؤرخ العلوم جورجيو دى سانتيلانا هذا الشاهد على سبيل المثال"ان القضية في جوهرها تلوح لي اكثر خطورة.(...)فقضية جاليلي هي نتيجة حكم الانكار الذي على اساسه،من وجهة نظري،لم يشأ المسئولون عن الفكر في قلب الكنيسة الكاثوليكية الرجوع عنه اطلاقا.ولقد كان هذا الانكار راجع لتضمين الفلسفة الطبيعية، سواءعلى الصعيد المنهجي او على صعيد علم الفلك ،في الفكر العلمي الوليد الذي يقدر له ان يواصل مكانته التي نعرفها اليوم."ان الذي عبر بهذه الصورة، ربما يكون تيارد دى شاردان Teihard de Chardin ، وهو يسوعي ومن رجال العلم.على كل حال فهذه الفكرة تستدعي البحث.

(مؤلف ايطالي مجهول من القرن السابع عشر،محاكمة جاليلي

Le procès de Galilee. Cliché Bridgeman-Giraudon)

ان جاليلي في خطابه الموجه الي الدوقة الكبيرة،في ١٦١٥،قد دخل في مغامرة على ارض اللاهوت.حيث انه في هذا الخطاب شرح للدوقة كيف يجب التوفيق بين علم الفلك الكوبرنيكي وبعض فقرات الكتاب المقدس التي يلوح فيها ان بينهما تناقض.وكانت النتيجة الاساسية لهذا هو منع كوبرنيك عام ١٦١٦. وظل مازعم انه تبرير لهذاالتحريم مكتوما كسر من قبل الكنيسة حتى عام ١٦٣٣. ام جاليلي نفسه فقد وجهت اليه "تعنيفا" في يوم ٢٦ فبراير ١٦١٦. أي ان الكردينال بيلرمان نفسه طلب منه الا يدافع عن نظرية كوبرنيك.ولقد امتثل جاليلي للامر.ولكن في محاكمة عام ١٦٣٢ وجه اليه القضاة تهمة عدم طاعة "تحذير" اكثر عنفا حرم عليه بشكل قاطع ليس فقط الدفاع عن كوبرنيك ولكن ايضا عدم تدريس نظريته.ولكن في الواقع،لا توجد في حوزتنا أي وثيقة رسمية تحمل برهانا قاطعا على هذا الامر الجوهري.فحسب العديد من المؤرخين،ان المحاكمة تعتبر باطلة،من وجهة النظر القانونية.

ولكن لماذا قدرت الكنيسة انه من الافضل مهاجمة جاليلي لانه يعتنق نظرية كوبرنيك.ان المؤرخ الايطالي بيترو ريدوندي قدم لنا تفسيرا جديدا تماما لهذه "القضية" بلفت نظرنا لبعض الاطروحات الفيزيائية التي دعمها جاليلي في كتابه المساح.(الذي نري هنا الغلاف لطبعته الاصلية).وهذه الاطروحات هي اطروحات تتعلق بالمذهب الذري(أو مذهب الجوهر الفرد).وهذا المذهب كان يشكل من وجهة نظر بعض اللاهوتيين نتائج خطيرة.فهو يشكل تهديدا مباشرا أو بشكل غير مباشر لمذهب سر القربان المقدس،الذي يؤكد على ان الوجود الفعلي للمسيح في خبز الذبيحة ويشكل ركن اساسي في في الاعتقاد الكاثوليكي.وحسب ب.ريدوندي انه يجب البحث في هذه المسالة عن"السر"لمحاكمة جاليلي عام ١٦٣٣.فالهدف كان اجبار جاليلي الذري على الصمت.

حمل المقال من أسفل

هل يجب أن تضع
الكنيسة نهاية
لفضيحة جاليلي ؟
.. بول توبييه ..
ترجمة مصطفى نور
الدين

أي رسالة أو تعليق؟